التقنيّات البلاغية الحجاجية
في سورة يونس ((أسلوب الاستفهام أنموذجا))

Argumentative Rhetorical Techniques in Surah Yunus (The Interrogative Style as a Model)

م.د. محمد صادق شمخي العبد الله
المديرية العامة لتربية البصرة

Dr. Mohammed Sadiq Shamkhi Al-Abdullah
sadqmohammed046@gmail.com

الخلاصة :

وظّف الخطاب القرآني في يونس أسلوب الاستفهام لعرض مجموعة من التقنيات البلاغية الحجاجية لإبطال ما يعتقدون في الأُلوهية الزائفة، فجاء أسلوب الاستفهام في سورة يونس يحمل معانيًا مجازية عديدة، منها التعجب، والتقرير، والتوبيخ، وغيرها ، وجاءت هذه المعاني بعد عرض الحجج الداغمة لبطلان ما يعتقدون في تلك الآلهة. واعتمد الخطاب القرآني في ذلك على التقنيات الحجاجية التي تعتمد على البعد الرياضي وشبه المنطقي وغيرها في ردّه على حجج المعاندين .

Conclusion

The Qur'anic discourse in Yunus functioned the interrogative style to present a set of rhetorical argumentative techniques to refute their beliefs about the gods. The interrogative style in Surah Yunus carries numerous metaphorical meanings, including astonishment, confirmation, rebuke, and others. These meanings come after presenting compelling arguments to refute their beliefs about these false gods. In this regard, the Qur'anic dis-

course relies on argumentative techniques that draw on mathematical and quasi-logical dimensions in its response to the arguments of the opponents.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آل بيته الأطهار.

أمّا بعد:

القرآن الكريم معجزة الرسول الأكرم (ص) الخالدة، لا يُبلى ولا تنفد أسراره مع كثرة الدراسات والأبحاث، يتدفق أسرارا قيمة على مرّ العصور، وما زال غظاً طرياً.

الخطاب القرآني خطاب إقناعي يخاطب أفراد المجتمع الإنساني، يبتغي التأثير فيهم وتصحيح سلوكهم، بأساليب لغوية متعددة منها، أسلوب الاستفهام وفي سورة يونس نجده قد استعمل أكثر من ثلاث وعشرين مرة، في حواره مع المعاندين والمنكرين، لإقناعهم بالتوحيد ونبذ عبادة الأوثان، وهذا يدّل على قدرته الكبيرة في إدارة الحوار وإلزام الخصم بما يجحده.

قد حظي الحِجَاج باهتمامٍ كبيرٍ في الدرس اللساني، فتعددت النظريات الحجاجية لتعدد الزوايا التي نظر إليها محللو الخطاب في تحليلهم للخطاب، فالإقناع والتأثير في الآخر وظّيفة أساسية، وهذه الوظيفة تؤديها صور بلاغية، وتراكيب لغوية، تحمل في طياتها البراهين والأدلة.

الاستفهام الحجاجي أسلوب إنشائي أمتاز بأمكانيته على إدارة الخطاب إلى الوجهة التي يبتغيها المتلقي، لذلك يعدّ من الأفعال الإنجازية؛ لأنّه إنجاز قولي مصحوب بقصدية الإقناع، والفعل الكلامي لا يقف عند حدود المظهر الفعلي من الإحالة المجردة، وإنّما يدل على قيمة إنجازية، يبتغي التأثير في الآخر، لذلك يتصف بطابع تواصلي.

فجاءت هذه الدراسة تكشف البعد الحجاجيّ لأسلوب الاستفهام في سورة يونس المباركة، على ضوء الإشكاليات الآتية:

- ما التقنيات الحجاجيّةُ البلاغية في أسلوبِ الاستفهامِ في سورةِ يونس ؟
- ما أنواع الحجج البلاغية التي جاءت في سياق أسلوب الاستفهام؟
- ما أثر أسلوب الاستفهام الحجاجيّ على المتلقي ؟

الدراسات السابقة:

- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صوله.
- أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، غرضه وإعرابه.
- أساليب الطلب في سورة يونس، (أسلوب الأمر أنموذجا) ، دراسة دلالية. د.علي الشمري. مجلة الجامعة العراقية , ٢٠٢١,

المجلد ٥١, العدد ٣.
- أثر التقديم والتأخير في النص القرآني،((سورة يونس أنموذجا)) أ.م.د أحمد بطل وسيج الموسوي، مجلة العلوم الإنسانية, ٢٠٢١, المجلد عدد خاص بالمؤتمر, العدد ١.

وقد بُني البحث على مبحثين تتقدمهما مقدمة وتتلوهما خاتمة، أول المبحثين: كان وقفة تعريفية بأسلوب الاستفهام وأهميته في النظريات الحجاجية، والتقنيات الحجاجية البلاغية، وثانيهما: كان دراسة تطبيقة في سورة يونس فقد اختار الباحث مجموعة من الآيات القرآنية التي تضمنت استفهاماً حجاجياً بلاغياً قام الباحث بتحليلها ودراستها.

المبحث الأول

أسلوب الاستفهام في الدرس الحجاجي

أولا: الاستفهام لغة: مشتق من الفعل (فَهِمَ) ويدل هذا الأصل على ((عِلْمِ الشَّيْءِ)) [١] وحروف الزيادة معه تدل على الطلب، قال صاحب الصحاح:((واسْتَفْهَمه: سأله أَنْ يُفَهِّمَه)) [٢] ((وقد اسْتَفْهَمَني الشئ فأفهمته، وفهمته تفهيما.)) [٣] لذلك قال الراغب الاصفهاني في مفرداته: (والاِسْتِفْهَامُ: أن يطلب من غيره أن يُفَهِّمَهُ.)) [٤]

أمّا الاستفهام اصطلاحا: عرفّه عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ((الاستفهام استخبار، فالاستخبار طلب من المخاطب أن يخبرك)) [٥] وهذا التعريف مأخوذ من كلام سيبويه (ت١٨٠هـ) يقول في الكتاب في حده للاستفهام: ((أن تسوي علم المخاطب فيهما كما تسوى علمك في المسألة حين قلت: أزيد ثم أم عمرو.)) [٦] فالغرض من الاستفهام: أن تجعل علم المخاطَب مساويًا لعلم المخاطِب في مسألة ما، فهذا التعريف نظر إلى الغاية من الاستفهام، وعرّفه التفتازاني(ت ٧٩٣هـ) بلحاظ صيغته المزيدة (استفعل) مبينا بأنّها في هذا السياق تفيد الطلب، ـــ كما تقدم ـــ في المعنى اللغوي، فالاستفهام عنده: ((هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن)) [٧] .

ثانياً: الحجاج وتقنياته

الأصل اللغوي لفظة الحجاج يدل على القصد، جاء في الصحاح: ((الحَجُّ: القصد. ورجل مَحْجوجٌ، أي مقصود.)) [٨] واشتق منه ((الحجة: البرهان. تقول حاجَّهُ فحجَّه أي غلبه بالحُجَّةِ)) [٩]. واشتق منها (الحِجاج) للدلالة على المشاركة في حوار مع آخر ببراهين متعددة، والتغلب عليه بها، قال صاحب لسان العرب: ((يُقَالُ: حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حَتَّى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ الَّتِي أَدْلَيْتُ بها)) [١٠].

الحِجاج اصطلاحا: عند قراءة النظريات الحجاجية نجد أن تعريف الحجاج قد تعدد بتعدد تلك النظريات، فكلّ نظرية لها تعريفاً خاصاً بها، ففي نظرية (بيرلمان

وتيتيكا) في كتابهما (الخطابة الجديدة) نظرا إلى الغاية منه، فعرفاه: ((هو جعل العقول تذعن وتسلم لما يطرح عليها من الأقوال، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم. فأنجع الحجاج وأنجحه ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب.)) [١١]

وأمّا (ستيفان) في كتابه (المقاربة المنطقية) عرّفه: ((المسار الذي يسلكه الباث لإقناع المخاطب بنتجية ما.)) [١٢] فتعرّيفه للحجاج يقوم على أمرين هما: الطرائق التي يختارها المتكلم، وإذعان المخاطب له.

وأما (إيمرن وغروتندورست) في كتبهما (نظرية نسقية في الحجاج) فعرّفاه بأنه: ((نشاط كلاميّ واجتماعي وعقلي الغرض منه إقناع ناقد معقول بمقبولية وجهة نظر عن طريق تقديم كوكبة من القضايا المُبرّرة أو المُفندة للقضية المعبر عنها في وجهة النظر.)) [١٣] اعتماد المؤلفان في نظريتهما على النقاش النقدي بوصفه آلية نظريّة قادرة إنتاج الحجاج وتحليله وتقييمه.

أما مصطلح التقنية البلاغيّة قد ظهر في نظريّة البلاغة الجديدة (لبيرمان وتيكا) في كتابهما (الخطابة الجديدة) ويراد بها: ((جملة من الآلات الخطابية والسياسات القولية التي يصرف إمكاناتها المحاج/ الخطيب حسب المقامات وبدوافع المقتضيات والأحوال، يقنع بها مخاطبيه تأثيرا وعملا.)) [١٤] وقد سعيا إلى حصرها على ضوء تشكلها داخل الخطاب الحجاجي في قسمين وهما: التقنيات الاتصالية و التقنيات الانفصالية. والغرض من هذا الحصر؛ لتكون الحجج داخلها ذات قيمة تأثيرية وفعالية أكبر عند المخاطب.

أ- التقنيات الاتصالية:

تضم هذه الحجج مجموعة من الآليات معتمدا على الأسس المنطقية الشكلية أو على الأسس الرياضية المتمكنة من جعل المخاطب يطمئن ويسلم بما يُلقى على عقله من آراء وأفكار قبولاً جازمًا بناء على ما تتصف به تلك التقنيات من الدقة، فتضاعف نجاعة الخطاب الحجاجي وتقوي عمله[١٥].

ب - التقنيات الانفصالية:

وهي التقنيات التي تنشأ انفصالاً بين المفاهيم[١٦]: فهو((الحجاج القائم على كسر وحدة المفهوم بالفصل بين عناصره المتضامن بعضها مع بعض، مرده إلى زوج الظاهر/ الواقع أو الحقيقية. .))[١٧]، إذ تسهم على إفشال وحدة المفهوم المتداول عليه في الوسط الاجتماعي الذي ينتقل إلى الأذهان بمجرد سماعه، فهي تجعل الدلالة الظاهرية للمفهوم زائفاً وغير حقيقي والمعنى الثاني هو المراد حقيقة، فهي قائمة على كسر وحدة المفهوم بالفصل بين عناصره، ومرد هذه التقنيات الانفصالية إلى زوج الظاهر/ الواقع أو الحقيقة[١٨]، وهذا الفصل تحدثه أسباب حجاجية غايتها إقناع المتلقي بأنَّ

ما يلمحه من المعنى الأول غير واقعي به هو زأئف وباطل .

وهذا الفصل بين المفاهيم يظهر في الخطاب بأساليب بلاغية ونحوية. ويرى الدكتور (عبدالله صولة) أنَّ تقنيات الفصل الحجاجي تظهر في البلاغة العربية بوجوه كثيرة منها:(الاحتراس، والاعتراض واسلوب القصر، والتتميم،...))[١٩]

ثالثا: الاستفهام في نظريات الحِجاج

حصر (بيرلمان وتيكا) الموجهات التعبيرية الحجاجية في أربع موجهات أحدهما، التوجيه الاستفهامي، وعدّه ((ذات قيمة خطابية جليلة إذ يفترض السؤال شيئا تعلّق به ذلك السؤال ويوحي بحصول إجماع على وجود ذلك الشيء. كما أن اللجوء إلى الاستفهام قد يهدف أحيانا إلى حمل من وجّه إليه الاستفهام على أبداء موافقته _ إذا أجاب_ على ما جاء الاستفهام يقتضيه.)) [٢٠] الخطاب الحجاجي مرتبط بالمقام، فلا بّد من أختيار الأسلوب الأنسب لكل مقام، فالخطاب الحجاجي في القضايا التي يتفق الطرفان على مبادئها وأساسها فالأنسب لها أسلوب الاستفهام لتقرير المخاطب بتلك الأسس.

أمّا السؤال عند (مايير) في نظريته الحجاجية (نظرية المسألة) فهو موضوع الحجاج عنده فالحجاج عنده ((إثارة الأسئلة وإثارة الأسئلة هي عنده الأساس الذي ينبني عليه الخطاب.)) [٢١]

فهو يرى بأنّ الحجاج متصل بطبيعة الكلام ووظّيفته الأساسية وهي التساؤلية، فالحجاج لديه محايث لاستعمال الكلام، لأنّ الخطاب يتضمن بالقوة سؤالاً يستمدّ منه دلالته[٢٢].

وأمّا (ديكرو وأنسكومبر) في كتابهما (الحجاج في اللغة)، فعندهما: ((إنّ الملفوظ الاستفهامي يمكنّه أن يؤدي في التأليف الحجاجي وظيفة الحجة كما يؤديها أي ملفوظ آخر.)) [٢٣] وقد عدّاه من مواطن الحجاجية داخل اللغة، ويرانِ قيمة أسلوب الاستفهام الحجاجي ((تتمثل في التوجيه الحجاجي الذي يختص به المحتوى القضوي لهذه الجمل بعد تحويلها من صيغ الاستفهام إلى صيغة النفي.)) [٢٤]

المبحث الثاني

دراسة تطبيقية في السورة المباركة

الآية الأولى: في قوله تعالى : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}{ سورة يونس: ٢ } العجب لغة: ((إنكارُ مَا يَرِدُ عَلَيْكَ لِقِلَّةِ اعْتِيادِه)) [٢٥] قد صرح المخاطبون تكذيبهم للرسول عن طريق التعجب، فأنكروا أنّ يكون البشر رسولا؛ لأنّهم غير مؤهلين لتلقي الوحي السماوي، فمبدأ تكذيبهم التعجب من هذه الظاهرة، لذلك ((جاء

الإنكار عليهم بإنكار تعجبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر لأن إنكار التعجب من ذلك يؤول إلى إنكار التكذيب بالأوْلى ويَقلع التكذيب من عروقه .)) [٢٦]

وهذا التعجب لا مسوغ له، فقد جرت العادة أن يصطفي الله رسول الأقوام منهم ، فهو أمر وقائع ، وإشار إليه في قوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ }(سورة هود:٥٠) استند هذه الحجة على حجية الوقائعية، فالواقع يمثل ما الأمر المتعارف حصوله عند الأفراد أو في المجتمعات [٢٧]، فانكار الأمر المتعارف حُدثها وعدم التسليم بها يعدّ أمراً مستغرباً ومستنكراً، فالأمور الواقعة ((لا تكون عرضة للدحض أو الشك)) [٢٨].

ويرى بعض المفسرين تعجب الكفار لعدّة أسباب[٢٩]، منها:

أولاً : دعوى الرسول (ص) إلى ترك عبادة الآله المتعددة، واختصاصها بالله سبحانه وتعالى، قول تعالى : { أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص : ٥] إذ بلغ بهم الأمر أن يتعجبوا من كون الإله واحدًا، وهذا يدل على بلوغهم أعلى درجات الجهل. [٣٠]

ثانيا: تعيين الرسول الخاتم بالنبوة، والإيحاء إليه دون غيره من أبناء عشيرته، ولم يكن من أسياد أهل مكة، لذلك قالوا:((ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب!)) [٣١]

ثالثا : فلو أمكن الله أن يرسل رسولا من البشر إلينا لكان رجلا عظيما، قال تعالى: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف : ٣١] ((فَتَحَكَّمُوا عَلى اَللَّهِ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ اَلرَّسُولُ أَحَدَ هَذَيْنِ وقَوْلُهم هَذا اَلْقُرْآنُ ذِكْرٌ لَهُ عَلى وجْهِ اَلِاسْتِهانَةِ لِأَنَّهم لَمْ يَقُولُوا هَذِهِ اَلْمَقالَةَ تَسْلِيمًا بَلْ إنْكارًا)) [٣٢] . ويمكن تمثيل أسباب تعجبهم بالسلم الحجاجي الآتي:

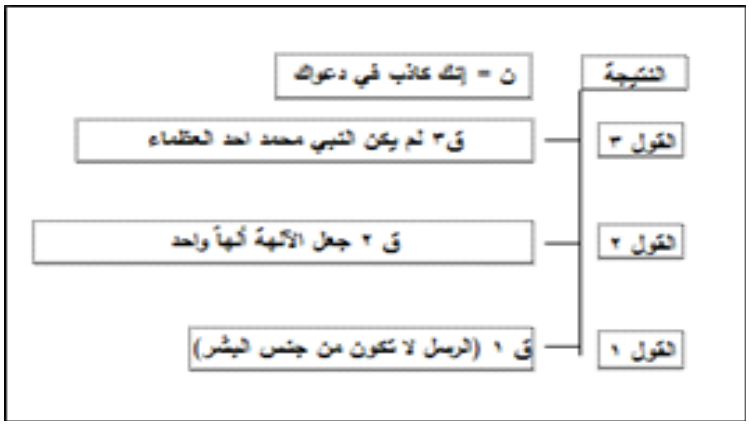

فـردّ الخطـاب القـرآني عـلى إشـكالياتهم المتقدمـة بحجـج متعـددة في هـذه السـورة المباركـة وهـي:

الحُجـة الأولى : في قولـه تعـالى: { أَنْ أَنْـذِرِ النَّـاسَ وَبَـشِّرِ الَّذِيـنَ آَمَنُـوا أَنَّ لَهُـمْ قَـدَمَ صِـدْقٍ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ} إنّ إنـذار النـاس لا بـدّ أن يكـون بواسـطة بعـض العبـاد لإيصـال التكاليـف إلى أولئـك المكلفـين. لذلـك ((كان إرسـال الرسـول أمـراً غـير ممتنـع، بـل كان مجـوزاً في العقـول)) [٣٣] تنتمـي هـذه الحجـة إلى الحجـج البرغماتيـة عـلى وفـق تقسـيم (بيرلمـان وتيـكا) للحجـج وعرفهـا بـ((أنّهـا الحجـة التـي يحصـل بهـا تقويم عمل مـا أو حـدث مـا باعتبـار نتائجـه الإيجابيـة أو السـلبية)) [٣٤] .

الحجـة الثانيـة: في قولـه تعـالى: { إِنَّ رَبَّكُـمُ اللَّـهُ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ ثُـمَّ اسْـتَوَى عَـلَى الْعَـرْشِ يُدَبِّـرُ الْأَمْـرَ مَـا مِـنْ شَـفِيعٍ إِلَّا مِـنْ بَعْـدِ إِذْنِـهِ }{ سـورة يونـس: ٣ } إنّ اللـه تعـالى هـو المنشـئ والموجـد للكـون، لـه الأمـر والنهـي والإذن والمنـع، وإذا كان الأمـر كذلـك يصطفـي مـن يشـاء مـن عبـاده رسـولا لـه فـ((إرسـال الفقـير أو اليتيـم ليـس بعجـب أيضـاً ، لأنّ اللـه تعـالى : إنمـا يختـار مـن اسـتحق الاختيـار ، لجمعـه أسـباب الاسـتقلال بمـا اختـير لـه مـن النبـوّة . والغنـى والتقـدم في الدنيـا ليـس مـن تلـك الأسـباب في شيء)) [٣٥]. وأتبـع جـلّ جلالـه ذكـر الخلـق الأسـتواء عـلى العـرش ((لزيـادة الدلالـة عـلى العظمـة وأنـه لا يخـرج أمـر مـن الأمـور مـن قضائـه وتقديـره)). [٣٦] إنّ بيـان عظمـة اللـه ـــ سـبحانه وتعـالى ـــ وسـلطته عـلى المنكريـن ترجـع إلى حجيـة السـلطة في الإقنـاع وهـي حجة((تغذُوهـا هيبـة المتكلـم ونفـوذه وسـطوته.)) [٣٧]

الحجـة الثالثـة: الإيمـان باللـه وحـده وعبادتـه توجـب السـعادة الآخرويـة، قـال تعـالى: {وَبَـشِّرِ الَّذِيـنَ آَمَنُـوا أَنَّ لَهُـمْ قَـدَمَ صِـدْقٍ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ}[يونـس : ٢] خلـق اللـه الخلـق للاشـتغال بالعبوديـة كـما في قولـه تعـالى: { وَمَـا خَلَقْـتُ الجـن والإنـس إِلاَّ لِيَعْبُـدُونِ} [الذاريـات : ٥٦] وقـال جـلّ شـأنه : { إِنَّـا خَلَقْنَـا الإنسـان مِـن نُّطْفَـةٍ أَمْشَـاجٍ نَّبْتَلِيـهِ } [الإنسـان : ٢] وقـال جـل شـأنه : { قَـدْ أَفْلَـحَ مَـن تـزكى وَذَكَـرَ اسـم رَبِّـهِ فصـلى } [الأعـلى : ١٤ ، ١٥] فهـؤلاء المؤمنـين قـد مـنَّ اللـه عليهـم بالإيمـان بواسـطة الرسـل((ثم علـم تعـالى أن عبـاده لا يشـتغلون بمـا كلفـوا بـه ، إلا إذا أرسـل إليهـم رسـولاً ومنبهـاً . فعنـد هـذا يجـب وجـوب الفضـل والكـرم والرحمـة أن يرسـل إليهـم ذلـك الرسـول، وإذا كان ذلـك واجبـاً فكيـف يتعجـب منـه.)) [٣٨]

الحجـة الرابعـة : ((بـأن الوحـي كانَ إلى رجـل مـن النـاس وذلـك شـأن الرسـالات كلهـا)) [٣٩] إنّ إرسـال الرسـل إلى الأقـوام سـنة قائمـة في كلِّ الأزمنـة، كـما قـال تعـالى: { وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن قَبْلِـكَ إِلاَّ رِجَـالاً نُّوحِـي إِلَيْهِـمْ } [يوسـف : ١٠٩] فلـماذا ينكـروا

أمـرا قـد وقـع مـن قبـل !.
الحجـة الثالثـة والرابعـة مـن الحجـج شـبه المنطقيـة التـي تعتمـد عـلى العلاقـات الرياضيـة، التـي مبدأهـا ماينطبـق عـلى الـكل ينطبـق عـلى الجـزء. فكـما وجـب إرسـال رسـولاً مـن البـشر إلى الأقـوام الأُخـرى، وجـب إرسـال رسـولاً منكـم إليكـم. أدنـاه سـلّم حجاجـي يبـين ترتيـب الحجـج والنتيجـة.

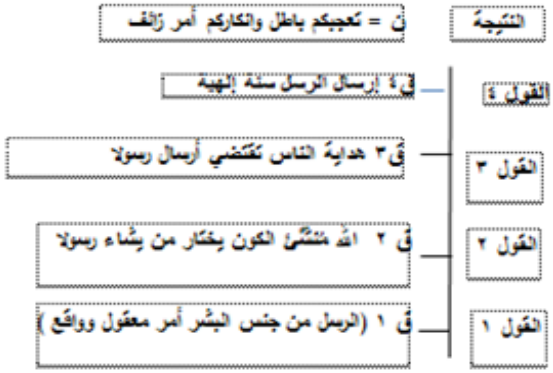

قـد وظّـف الخطـاب القـرآني الإمكانيـات اللغويـة لحـصر الملفـوظ الحجاجـي في جهـة خاصـة، فقـد أدخـل (همـزة) الاسـتفهام على الفعـل (كان) ولم يقـل (أعجـب النـاس) للدلالـة ((عـلى التعجيـب مـن تَعَجُّبهـم المـراد بـه إحالـة الوحـي إلى بَـشر. والمعنـى : أحـدث وتقـرر فيهـم التعجـب مـن وحينـا، لأن فعـل الكـون يشـعر بالاسـتقرار والتمكـن فـإذا عـبر بـه أشـعَرَ بـأن هـذا غـير متوقَّـع حصولـه .)) [٤٠] ووظـف شـبه الجملـة (للنـاس) المتعلقـة بـ(كان) ليعلـم المتلقـي اسـتقرار هـذا التعجـب في كفـار قريـش لذلـك اقتـضى التعجـب منـه والاهتـمام بـه ((لأن أصـل الـلام أن تفيـد الملـك، ويسـتعار ذلـك للتمكـن، أي لتمكـن الكـون عجبـاً مـن نفوسـهم)) وقـدم (عجبـاً) خـبر (كان) اسـمها للاهتـمام بـه لأنّـه محـل الإنـكار وموضـوع الحجـاج.

الآيـة الثانيـة: في قولـه تعـالى: {قُـلْ لَـوْ شَـاءَ اللَّـهُ مَـا تَلَوْتُـهُ عَلَيْكُـمْ وَلَا أَدْرَاكُـمْ بِـهِ فَقَـدْ لَبِثْـتُ فِيكُـمْ عُمُـرًا مِـنْ قَبْلِـهِ أَفَـلَا تَعْقِلُـونَ} {سـورة يونـس:١٦ } الاسـتفهام بـ(الهمـزة) مجـازي للإنـكار، وبعضهـم يـراه للتوبيـخ.[٤١]

الإنـكار مـن قبـل الرسـول الأعظـم (ص) عـلى كفـار قريـش بعـد أن قدمـوا لـه مقترحـين في الآيـة السـابقة عليها، وهـي قوله تعـالى: {وَإِذَا تُتْـلَى عَلَيْهِـمْ آيَاتُنَـا بَيِّنَـاتٍ قَـالَ الَّذِيـنَ لَا يَرْجُـونَ لِقَاءَنَـا ائْـتِ بِقُـرْآَنٍ غَـيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْـهُ }{سـورة يونـس:١٥} والغايـة مـن وراء هذيـن الإقتراحـين الكبـد والمكـر[٤٢]

على النحو الآتي: ((أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل فللطمع ولاختبار الحال ، وأنه إذا وجد منه تبديل ، فإما أن يهلكه الله فينجوا هم منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحا لافترائه على الله .)) [٤٣]

قدّم الخطاب القرآني حججا متتالية يساند بعضها بعض؛ لإثبات كون القرآن الكريم منزلا من الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ وليس الرسول (ص) إلا مُبلغًا له، وجاءت هذه الحجج على النحو الآتي:

الحجة الأولى: إن تلاوة كتاب عظيم يشتمل((على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين. وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء)) [٤٤] على يد رجل لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتاباً، يدلّ بضرورة العقل أنّه لا سبيل إليه إلا الوحي والتنزيل، فهذه الحجة ((تشير إلى معجزة المقدرة على تلاوة الكتاب مع تحقق الأمية لأن أسلوب الكتب الدينية غير الأسلوب الذي عرفه العرب من شعرائهم وخطبائهم.)) [٤٥] واختار لفظ (التلاوة) ، لأنّها مشعرة بإبلاغ كلام من غير المبلِّغ، وهي أخص من (القراءة) لأنّ ((كل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوت رقعتك، وإنّما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه.)) [٤٦] فأخذ في لفظ التلاوة الإتباع والامتثال لما فيه من أمر ونهي وترغيب وترهيب، هذا الإختيار حصر الملفوظ الحجاجي بإتجاه واحد، وهو عبادة الله الواحد القهار.

الحجة الثانية: حجة ضمنية يقتضيها جواب أسلوب الشرط بالأداة (لو) ـ حرف امتناع لوجودـ ، فجواب (لو) الشرطية المحذوف، يثبت صحة دعواه بنتفاء نقيضها ، فتقدير المعنى : لو شاء الله ما تلوته لكنني تلوته عليكم، وقد اختار الخطاب القرآني هذا الأسلوب ليحقق غرضين هما: ((إبطالاً لدعواهم ابتداء وإثباتاً لدعواه مآلا . وهذا الجمع بين الأمرين من بديع الاستدلال، أي لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري .)) [٤٧]

الحجة الثالثة: في قوله تعالى: {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ} {سورة يونس:١٦ } تستند هذه الحجة على معرفة أهل مكة بأحوال الرسول الأكرم (ص) لمدة طويلة قبل البعثة من طفولته إلى بلوغه الأربعين عاماً فلم يعرّف عنه الكذب ولا بلاغة الكلام ولا إدعاه أموراً خارقة للعادة، ولكنّ حاله بعد الوحي قد أختلف كثيرا فقد جاء((بِهَذا الكِتابِ الأحْكَمِ المُشْتَمِلِ عَلى حَقائِقِ عِلْمِ الأُصُولِ ودَقائِقِ عِلْمِ الفُرُوعِ ولَطائِفِ عِلْمِ الأخْلاقِ وأسْرارِ قَصَصِ الأوَّلِينَ في عِبارَةٍ قَدْ عَجَزْتُمْ

- وأنْتُـمْ أفْصَـحُ النّـاسِ وأبْلَغُهـم - عَـنْ مُعارَضَـةِ آيَـةٍ مِنهـا، فَوَقَـعَ بِذَلِـكَ العِلْـمُ القَطْعِـيُّ الظّاهِـرُ جِـدًّا أنَّـهُ مِـن عِنْـدِ اللَّـهِ فَلِذَلِـكَ سَـبَّبَ عَنْـهُ إنْـكارَ العَقْـلِ)) [٤٨] تذكير الرسـول (ص) قومـه بسـيرته الذاتيـة المعروفـة لديهـم تدفعهـم بالإقـرار بصـدق دعـواه، لأنّـه أمـر واقـع ومشـهود لـه بـه فـلا يقـدرون عـلى إنـكاره.

إنّ السـيرة الذاتيـة الحسـنة لشـخص مـا تعـدّ طريقـة إقناعيـة تجـذب المتلقـي للإذعـان بمـا يقـول، إذا احتـج بهـا المتكلـم في خطابـه، لأنّ ((الإنسـان في الحجـاج ذا صفـات معينـة، منشـئاً لأعـمال وأحـكام معيّنـة، كذلـك هـو موضـوع تقويـم مـن قبـل الآخريـن [في ضـوء تلـك الصفـات والأعـمال والأحـكام].)) [٤٩] قـد شـكلت الحجـج المتقدمـة سـلما حجاجيـا، كما موضـح في الشـكل إدنـاه:

فالحجج المتقدمة تلزم المخاطبين بتصديق دعواه
فتكذيبهم للرسول تدفعه أن يتعجب أن تكون لهم
عقول يدركون ويلتقطون ويختزنون العلم بالشيئ
مباشرة أو استنتاجاً.

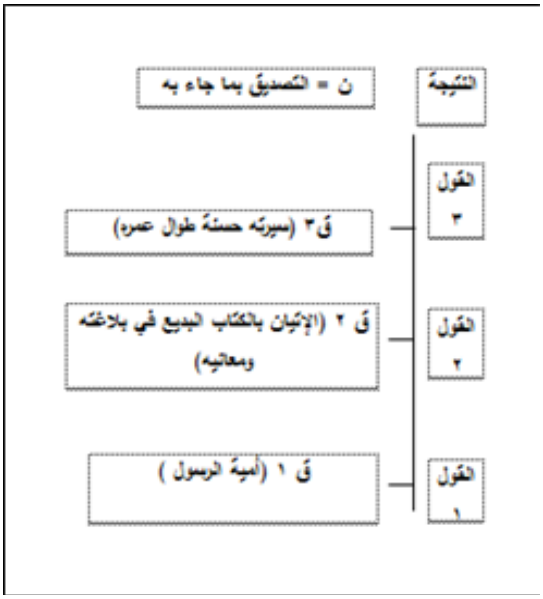

الآيـة الثالثـة: ((وَيَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللَّـهِ مَـا لَا يَضُرُّهُـمْ وَلَا يَنْفَعُهُـمْ وَيَقُولُـونَ هَـؤُلَاءِ شُـفَعَاؤُنَا عِنْـدَ اللَّـهِ قُـلْ أَتُنَبِّئُـونَ اللَّـهَ بِمَـا لَا يَعْلَـمُ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَـمَّا يُشْرِكُـونَ)) {سـورة يونـس:١٨} بعـد مـا ردّ اللـه ـــ سـبحانه وتعـالى ـــ على لسـان نبيـه الأكـرم (ص) مـا التمسـوه مـن تغيـر القـرآن الكريـم ، أو تبديلـه لأنّ هـذا

القرآن يسيء لأصنامهم التي أتخذوها آلهة لأنفسهم، فقد ((ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام ، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن .)) [٥٠]

الاستفهام في هذه الآية المباركة تقريري، وتوبيخي، تقريري، لأنّ يلزم من تبريرهم لعبادة الأصنام الإقرار بوجود الله تعالى شأنّه، وتوبيخي؛ لأنّهم يعبدون ما لاينفعهم وما لا يضرهم وهو أمرٌ مخالف لضرورات العقل، فجاءت هذه الآية المباركة لتوبخهم وتسخر من عقولهم وأفكارهم .

قدّم المشركون حجة تسوغ لهم عبادة الأوثان، وهي إنّ الأصنام لتشفع لهم عند الله و إنّ الله أذن لهم في عبادتها و أنّه سيشفعها فيهم في الآخرة، والحجة الأُخرى: إن عبادة الأوثان وسيلة لعبادة الله حق عبادته، ((فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام ، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى.)) [٥١]

قدّم الخطاب القرآني عدّة حجج تبطل عبادة المشركين للأوثان منها ما ورد في الآية الكريمة، إنّ الأوثان لا تستحق العبادة؛ لعدة وجوه:

أولها: أنها لا تقدر على نفع ولا ضرّ؛ لأنها جمادات، ومن كان كذلك لا يستحق العبادة، لـ((أنّ المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد)) [٥٢] ردّ الخطاب القرآن على حجة المشركين القائمة على حجة سببية، بنقض تلك الحجة، فالأوثان ليس قادرة على نفعكم في أيّ أمر ما، فينتفي المسوغ لعبادتها.

وثانيها : إنّ عبادة الأوثان ليس فيه منفعة ، وترك عبادتها ليس فيه مضرة ، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية . استندت هذه الحجة على (الغائية) التي تعتمد على نتائج العمل أو الحدث للحكم عليه سلبًا أو إيجابًا،[٥٣] لذلك عُدِت من أهم وسائل الحجاج؛ لأنّها لها أثر عظيم في إرشاد المخاطب لجهة ما[٥٤] .

ثالثهما: من القبيح والمستنكر أن يُعظم الإنسان مَن لا يستحق التعظيم، وعبادة الأوثان تستلزم تعظيمها، وهو قبيح لأنّها لم يصدر عنها ما يوجب ذلك التعظيم و((إنّ العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الأنعام ، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد ، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى ، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه .)) [٥٥] تعمد هذه الحجة على قياس شبه منطقي، يتألف من حجتين، كبرى وصغرى، ونتيجة، وهي أحدى تقنيات الحجاج التي تدفع المتلقي للإقتناع بما يراه المتكلم،إذ يقوم المحاجج بالربط بين أمرين أحدهما مسلم به والآخر مشكك فيه مندرجة تحت القضية

المسلم بها. [٥٦].

رابعهما: قد نفى الله علمه بوجود شريك له ((لأنّه لو كان موجوداً لكان معلوماً لله تعالى، وحيث لم يكن معلوماً لله تعالى وجب أن لا يكون موجودا)) [٥٧] ، إنّ الرسل التي سبقت جميعهم يدعون إلى عبادة الله الواحد القهار، فمن أخبركم بما تدعون.

ومن المعاني الأُخرى للاستفهام المذكور في الآية، التهكم والسخرية بالمشركين، فأنباء الله أمر محال، وجاء هذا التهكم والسخرية بعد ما بين لهم في بداية قباحة وفساد ما يعتقدون في تلك الآلهة المزعومة هو شفاعة الأصنام .

نلحظ في الحجج السابقة التركيز على وحدانية الله جل جلاله، وتفرده الكامل، وترسيخ هذا الأمر يتطلب براهين تعقل ولا تحدس، لذلك اعتمد على الحجج القائمة أكثرها على علاقة شبه منطقية، التي تستلزم فيها القياسات والتوجيهات والتجريدات، وهي كلّها من دواعي إثبات البرهان وتمكين الدليل وهذا ما جعلها((مختصة بقوة عالية في تمكين الاقتناع وترسيخ اليقين بالأطاريح المعروضة والمواقف المقدمة، حقائق يعتقد فيها الجمهور ومقررات يؤمن بواثقتها)) [٥٨]

الآية الرابع: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}{سورة يونس:٣١}

اشتملت هذه الآية المباركة على عدّة استفهامات، ربط بينها الرابط الحجاجي حرف العطف (الواو) وفي الاستفهام، الأخير ووظف حرف العطف (الفاء) مع الاستفهام بـ(الهمزة) لبيان ما يترتب على إقرارهم بوحدانية الله سبحانه وتعالى. ونلحظ بأن الخطاب القراني في هذه الآية ووظف تقنية حجاجية جديدة، وهي المساءلة الحجاجية فـ((جاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب، لأنّ ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب .)) [٥٩]

وهذا ما أكدته نظرية (ماير) في الحجاج، يقول: ((إننا عندما نسائل نجيب بأنّ عملية التفكير هي عملية المسألة وأنّ استعمال الكلام الحامل لقدرة الفكر على المساءلة يعدّ فعل.)) [٦٠]

الاستفهام الأول: في قوله تعالى: ((مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) استفهام تقريري، يشتمل على تقنية حجاجية بلاغية شبه منطقية، لأنّ الرزق له سببان إمّا السماء أو الأرض ، من السماء فبنزول الأمطار التي سببا لسقي الأرض، ومن الأرض؛ لأنّ الغذاء إما أن يكون نباتاً أو حيواناً ، إمّا النبات فلا ينبت إلا من الأرض و إمّا الحيوان فهو محتاج أيضاً إلى الغذاء

. ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيواناً آخر وإلا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال ، فثبت أن أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها إلى النبات وثبت أن تولد النبات من الأرض ، فلزم القطع بأن الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض ، ومعلوم أن مدبر السموات والأرضين ليس إلا الله سبحانه وتعالى ، فثبت أن الرزق ليس إلا من الله تعالى .[٦١] وقد خص الله مصدر الرزق بالسماء والأرض فقط ((ليكون أقوى حضوراً في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من الأرض النبات كله من حب وثمر وكلأ .)) [٦٢]

الاستفهام الثانية: ((أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)) إقرارهم بما يتمتعون به من نعم ظاهرة كالسمع والبصر، من خلق الله سبحانه وتعالى، تلزمهم الإقرار بوحدانية الله وعبادته، وقد ((وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأنّ لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنّهما قد اشتملتا في تركيبهما على ما بهر العقول ، ويشهد بقدرته - تعالى - وعجيب صنعه في خلقه .)) [٦٣] ربط الخطاب القرآني بين أمرٍ مسلّم به وأمر يريد أثباته وجعله مقبولاً ومسلّما به، وذلك عن طريق جعل الأمر المسلم به والأمر غير المسلّم به عناصر تنتمي إلى واحد يجمع بينهما، بحيث لا يمكن التسليم بأحدهما دون التسليم بالآخر، لهذا وصفها بيرلمان وتيكا بوصفها حجة اتصالية أو قائمة على الاتصال[٦٤].

وقد وظف الخطاب القرآني (أم) المنقطعة؛ لتوجيه المخاطب لحجة أُخرى بالغة الأهمية وأكثر وضوحا من غيرها، وعلى هذا فليس المقصود من (أم) إبطال ما تقدم عليها من حجج ((بَلْ عَلى وجْهِ الِانْتِقالِ، وصَرْفِ الكَلامِ عَنْهُ إلى اسْتِفْهامٍ آخَرَ؛ تَنْبِيهًا عَلى كِفايَتِهِ فِيما هو المَقْصُودُ، أيْ: مَن يَسْتَطِيعُ خَلْقَهُما وتَسْوِيَتَهُما عَلى هَذِهِ الفِطْرَةِ العَجِيبَةِ، أوْ مَن يَحْفَظُهُما مِنَ الآفاتِ مَعَ كَثْرَتِها، وسُرْعَةِ انْفِعالِهِما مِن أدْنى شَيْءٍ يُصِيبُهُما.)) [٦٥]

الاستفهام الثالث: بقوله تعالى:((وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)) تقرير المشركين بنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع، يلزمهم بالإعتراف بالوحدانية لله سبحانه وتعالى، وقد جاءت هذا الحجة ((العجيبة بأسلوب الأحاجي والألغاز وجعل بمحسن التضاد ، كل ذلك لزيادة التعجيب منه)) [٦٦]، وللتأثير على المتلقي، وحثّه للتفكير بهذا النظام الغريب المتقن بكلّ أجزائه.

الاستفهام الرابع: في قوله تعالى: ((وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)) بعدما ذكر الله سبحانه وتعالى عدّة أمور كلّ منها يقتضي مدبرا، و هذا المدبر لا بدّ أن يكون واحدًا، فلو كان أكثر من واحد، لعرّف عن وجوده، والمشركون يعترفون، بأنّ جميع ما تقدّم لا يفعله إلا الله إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختص بها هو مستحق الولاية

والإلهيـة[٦٧] .

الاسـتفهام الخامـس: في قولـه تعـالى: ((فَقُـلْ أَفَـلاَ تَتَّقُـونَ)) اسـتفهام توبيخـي، وإنـكاري، فبعـد إقرارهـم باختصاص الـذات الإلهيـة بالـرزق، والإحيـاء والأمـوات، وتدبـير الأمـر، فمـن الظلـم أن يجعـل لـه شريـك في العبـادة؛((وإذا ثبـت أن هـذا هـو الحـق، وجـب أن يكـون مـا سـواه ضـلالاً، لأن النقيضـين يمتنـع أن يكونـا حقـين وأن يكونـا باطلـين ، فـإذا كان أحدهـما حقـاً وجـب أن يكـون مـا سـواه باطـلاً .))[٦٨]

وبنـى اللـه الحـوار في الآيـة المتقدمـة عـلى لسـان رسـوله (ص) عـلى أسـلوب الاسـتفهام الحجاجـي وتـرك ((الجَـوابِ إلى المسْـؤُولِينَ، لِيَكُـونَ أبْلَـغَ في إلْـزامِ الحُجَّـةِ وأوْقَـعَ في النُّفُـوسِ.))[٦٩]

ويمكـن أرجـارع الحجـج في الآيـة المباركـة إلى تقنيـة حجيـة وهـي عـدم التناقـض التـي تسـتند عـلى مبـدأ حجاجـي منطقـي وهـو بـأنّ النقيضـينِ لا يجتمعـان ولا يرتفعـان، فاعتقادهـم باختصاص ماذكـر في الآيـة باللـه سـبحانه يتناقـض بمـا يعتقدونـه بالأوثـان.

الأيـة الخامسـة: { قُـلْ هَـلْ مِـنْ شُرَكَائِكُـمْ مَـنْ يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُـمَّ يُعِيـدُهُ قُـلِ اللَّـهُ يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُـمَّ يُعِيـدُهُ فَـأَنَّى تُؤْفَكُـونَ } {سـورة يونـس:٣٤} ابتـدأت الآيـة المباركـة باسـتفهام عـلى سـبيل الإنـكار عليهـم والتوبيـخ لهـم بعـد إقرارهـم في الحـوار المتقـدم باختصاص الـذات الإلهيـة بالـرزق والتدبـير والخلـق، كـرر عليهـم سـؤالا حجاجيـا جديـدا يتعلـق بقـدرة مـا يعبـدون مـن الأوثـان وغيرهـا على أنشـأ خلـق جديـد وإعادتـه مـرة أُخـرى، ومـما لا شـك فيـه أن اللـه قـادر عـلى ذلـك، وهـو مـن المسـلمات عندهـم، فالحجـة جـاءت عـلى أسـلوب الاسـتفهام، لأنّـه أبلـغ وأوقـع في القلـب، فأنكارهـم لوحدانيـة اللـه سـبحانه وتعـالى مـع إقرارهـم باختصاص الـذات الإلهيـة بمـا تقـدم يقتـضي توبيخهـم والإنـكار عليهـم.

فالاسـتفهام في الآيـة المباركـة للتبكيـت والإلـزام، وقـد قـرن قدرتـه عـلى الخلـق مـع قدرتـه إعـادة الخلـق مـع إنـكار الكفـار لأمـر الميعـاد وإحيـاء الخلـق ((لوضـوح مكانِهـا وسُـنوحِ برهانِهـا بمنزلـة بـدءِ الخلـقِ فنُظمـت في سـلكه حيـث قيـل : { مَّـن يَبْـدَأُ الخلـق ثُـمَّ يُعِيـدُهُ } إيذانـاً بتلازمهـما وجـوداً وعدمـاً يسـتلزم الاعـترافَ بهـا وإن صدهـم عـن ذلـك مـا بهـم مـن المكابـرة والعِنـاد.))[٧٠]

تـدل هـذه الحجـة ((أن آلهتهـم مسـلوبة مـن صفـات الكـمال وأن اللـه متصـف بهـا . وإنما لم يعطـف لأنـه غـرض آخـر مسـتقل، وموقـع التكريـر يزيـده اسـتقلالاً.))[٧١] وقـد أمـر اللـه سـبحانه الرسـول (ص) الإجابة عـن السـؤال مباشرة ومـن غـير توقـف؛ لأنّ الجـواب قطعـي وكان لجاجهـم في إنـكار الإعـادة وعنادهـم لا يدعهـم أن يجيبـوا بالحـق، وبدمـج الجـواب مـع الاسـتفهام يكون((قـصراً لصفـة بَـدْء الخلـق وإعادتـه عـلى اللـه تعـالى قـصرَ إفـراد، أي دون

شركائكم، أي فالأصنام لا تستحق الإلهية والله منفرد بها)) [٧٢].

ختم الخطاب القرآني الآية المباركة باستفهام آخر، وهو قوله تعالى: { فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ } استفهام تعجبي من المشركين، الأفك: هو قلب وصرف الشيء عن أصله[٧٣]، فالمعنى((فإلى أي مكان تقلبون، والقلب مجازي وهو إفساد الرأي)) فيكون الاستفهام في هذا الموضع ((عن مكان مجازي شبهت به الحقائق التي يُحول فيها التفكير. واستعارة المكان إليها مثل إطلاق الموضوع عليها والمجال أيضاً.)) [٧٤] فلم يتوجه الإنكار إلى نفس الفعل بل إلى المكان الواقع فيه((وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى نفس الفعلِ لأن كلَّ موجودٍ لا بد من أن يكون وجودُه على الحال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميعُ أحوالِ وجودِه فقد انتفى وجودُه على الطريق البرهاني)) [٧٥]

واستعمل الرابط الحجاجي (الفاء) السببية لترتيب الإنكارِ على ما قبله أي: كيف تُصرفون من من عبادة ربكم الحقِّ الثابتِ ربوبيتُه إلى عبادة الباطلِ الذي سمعتم ضلالَه وضياعَه في الآخرة [٧٦].

وقد وظّف الخطاب القرآني صيغة المبنيِّ للمجهول، للإشارة ((بأن الانصرافَ من الحق إلى الضلال مما لا يصدُر عن العاقل بإرادته وإنما يقع عند وقوعِه بالقسر من جهة صارفٍ خارجيَ.)) [٧٧]

الاية السادسة: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } { سورة يونس: ٣٥}

بعدما قدم الخطاب القرآني حججا متعددة تستند على جانب مادي ، وهو الخلق والرزق وتدبير الأمور، انتقل لنوع جديد من الحجج تستند على الجانب الروحي، فالإنسان جسد وروح، فالأوثان وغيرها من الآلهة المزيفة، مسلوبة الكمال المادي، والكمال الروحي، فجاءت هذه حجج بأسلوب الاستفهام المجازي للإلزام المشركين، وتوبيخهم بما يعتقدون بتلك الآلهة غير القادرة على الكمال النفساني بنشر الحق ، وقد أجاب الخطاب القرآني عن هذا الاستفهام مباشرة، بأن الله تعالى هو الهادي إلى الكمال والحق ، ومجموع الجملتين مفيد قَصْر صفة الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم قصرَ إفراد. [٧٨]

فالله سحبانه وتعالى قد أحق بالعبودية بل متختص بها ، لعدّة وجوه منها ماتقدم، والوجه الآخر أنّ الله سبحانه وتعالى قد بعث رسلاً يعلمون الناس ويرشدونهم إلى طريق الهداية الآخروية والدنيوية لينعموا بالأمن والسلام، ولولا هذه النعمة لساد الظلم والطغيان في الدنيا، وامتنع وصول الإنسان إلى الكمال

الروحي، وهذا منافٍ لغرض الإيجاد، ولأنّ((خلق الأجساد مقصود لأجل الأرواح، والأرواح مراد منها الاهتداء ، فالمقصود الأعلى هو الهداية.)) [٧٩] وأهل العقل يحكمون بوجوب اتباع من يوصل إلى الكمال الروحاني وهو الكمال الباقي إلى الأبد وهو الكون المصون عن الفساد [٨٠]. فهذه الآية المباركة استند إلى (حجية الغائية) ـــ التي تقدّم ذكرها ـــ .

هذا ما يتعلق بالاستفهام الأول في الآية المباركة، والاستفهام الآخر، جاء بقوله تعالى: { أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى } بعدما قصر الطريق المستقيم الذي تقام به الحياة ويسود العدل وبلوغ الكمال الروحي، بالله سبحانه وتعالى، ذكر حجة أُخرى متفرعة على ما سبق، وهذه الحجة تقوم على تقنية التعدية، ومن أنواعها التضمين ((وهي العلاقة المنطقية التي تبيّن أنّ قضيةً ما تتضمن قضية أخرى)) [٨١]

وتقرير الحجة على الصورة الآتية:

المقدمة الأولى: إتباع من يهدي إلى سبيل الرشاد واجب عقلاً واتباع غيره لا مصحح له.

المقدمة الثانية: الله يهدي إلى سبيل الرشاد.

النتيجة: إتباع الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ واجبا عقلا.

فإتباع العاجز عن الهداية، لا غاية من وراءه، وأفعال العقلاء لا بد ألّا تكون عبثية.

وجاء أسلوب الاستفهام في سياق ((الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يهتدي في حال من الأحوال إلا في حال هدى الغير إياه، وكان مقتضى المقابلة أن يقال أم من لا يهدي، وإنما خولف إشارة إلى أنه إذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره.)) [٨٢]

ومن أسرار التعبير القرآني في الآية الكريمة، المخالفة في استعمال حروف الجر، فقد عدى الفعل (هدى) في المرة الأولى والثالثة بحرف الجر (إلى) وفي المرة الثانية بـ(اللام) والتعدية، فالهداية لما أسندت إلى الأوثان ((وجبت تعديتها بـ(إلى) لأنّها تفيد البعد، كأنها ضمنا بعيدة عنهم ولكنها لما أسندت إلى الله تعالى، وجب تعديتها باللام التي تفيد القرب، كأنها من خصائصه وحده، وملك يمينه، وهو المنفرد بها على وجه الديمومة والكمال.)) [٨٣] يعدّ البعد البلاغي أداة مهمة تمكن المتكلم من إقناع الخصم، والتأثير فيه، لذلك وظف الخطاب القرآني هذا البعد ليفهم المتلقي مقصده بأقرب الطرق وأكثرها تأثيرا.

وجاء بعد ذلك باستفهامينِ متوليين للتعجب منهم، وتبكيتهم، بقوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } ((أيُّ شيء يثبت لكم في هذه الحالة؟ فهذه جملة مستقلة، وكيف تحكمون لي باتخاذ هؤلاء

شركاء لله؟ وهي جملة أخرى مستقلة، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ.)) [٨٤] فهذا التعجب جاء بعد أن قدّم الخطاب القرآني حجة ظاهرة على عجز تلك الآلهة من الانتقال أو إعانة نفسها، فضلا عن هداية الآخرين، فاتخذها آلهة أمر عجيب.

الخاتمة

يمكننا الآن أن نخلص النتائج الكبرى التي خلص إليها البحث، أما النتائج الأخرى، فقد تكفلت بها صفحات البحث بالكشف عنها، وفيما يلي أهم تلك النتائج:

١- الخطاب القرآني خطاب إقناعي يخاطب إفراد المجتمع الإنساني، يبتغي التأثير فيهم وتصحيح سلوكهم، بأساليب لغوية متعددة منها، أسلوب الاستفهام.

٢- الاستفهام الحجاجي أسلوب إنشائي أمّتاز بإمكانيته على إرشاد الخطاب إلى الناحية التي يبتغيها المُخاطِب، إذ يفترض الاستفهام شيئا تعلّق به ويوحي بحصول إجماع على وجود ذلك الشيء .

٣- التقنيات الحجاجية: هي مجموعة من الآلات الخطابية والسياسات القولية التي يصرف إمكاناتها المحاجج/ الخطيب حسب المقامات وبدوافع المقتضيات والأحوال، يقنع بها مخاطبيه تأثيراً وعملاً.

٤- وظّف الخطاب القرآني في سورة يونس أسلوب الاستفهام لعرض مجموعة من التقنيات البلاغية الحجاجية لإبطال ما يعتقدون في الآلهة الباطلة. وكذلك وظّف تلك التقنيات لإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى.

٥- اعتمد الخطاب القرآني على التقنيات الحجاجية التي تعتمد على البعد الرياضي وشبه المنطقي في ردّه على حجج المعاندين .

٦- قد جاء اسلوب الاستفهام في سورة يونس يحمل معانيًا مجازية عديدة، منها التعجب، والتقرير، والتوبيخ، وغيرها ، وجاءت هذه المعاني بعد عرض الحجج الداغمة لبطالان ما يعتقدون في تلك الآلهة الزائفة.

الهوامش:

١- معجم مقايس اللغة، ابن فارس:٤٥٧/٤ .

٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري :٢٠٠٥/٥.

٣- لسان العرب، ابن منظور:٤٥٩/١٢.

٤- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى: ٦٤٦ .

٥- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ١٤١ .

٦- الكتاب، سيبويه: ٢٣٦/١ .

٧- شرح المختصر على تلخيص المفتاح للقزويني، سعد الدين التفتازاني: ١٩٥.

٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية :٣٠٣/١.

٩- المصدر نفسه :٣٠٤/١

١٠- لسان العرب، ابن منظور: ٢٢٨/٢.

١١- الحجاج في الخطاب القانوني، عز الدين الناجح:١٧ وما بعدها.

١٢- المرجع نفسه:١٧ وما بعدها.

١٣- نظرية نسقية في الحجاج ، المقاربة الذريعية – الجدلية، فرانز فان إيمرن و روب غروتندورست ، ترجمة: عبد المجيد جحفة: ١١.

١٤- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، علي الشعبان:١٣٢. (الهامش)

١٥- ينظر: الحقيقة وآفاق التأويل: ١٤٧.

١٦- ينظر: أهم نظريات الحجاج : ٣٤٣.

١٧- المصدر نفسه: ٣٤٤.

١٨- ينظر: المصدر نفسه: ٣٤٦.

١٩- ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة:١٠٨.

٢٠- أهم نظريات الحجاج : ٣٢١.

٢١- الحجاج في القرآن الكريم، عبد الله صولة: ٣٩.

٢٢- ينظر: أهم نظريات الحجاج، محمد علي القارصي: ٣٩٤.

٢٣- المظاهر اللغوية للحجاج، رشيد الراضي : ٩٥.

٢٤- المصدر نفسه : ٩٦.

٢٥- لسان العرب، ابن منظور:٥٨٠/١ .

٢٦- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور : ٨٤/١١ .

٢٧- ينظر: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات: ٢٤.

٢٨- المصدر نفسه: ٢٤.

٢٩- ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي:١٧/ ١٨٥ وما بعدها.

٣٠- ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ١٨٥.

٣١- المصدر نفسه:١٧/ ١٨٥.

٣٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي :٧٨/١٣.

٣٣- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ١٨٥.

٣٤- أهم نظريات الحجاج : ٣٣٣.

٣٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري:٣٢٧/٢.

٣٦- تفسير جوامع الجامع ، الشيخ الطبرسي : ٢ / ١١١ .

٣٧- أهم نظريات الحجاج: ٣٣٥ .

٣٨- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ١٨٥.

٣٩- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: ٨٤/١١ .

٤٠- المصدر نفسه: ٨٣/١١ .

٤١- ينظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه

وبيانـه، محمـود صـافي:٦ /٩٤.
٤٢- ينظـر: الكشـاف عـن حقائـق غوامـض التنزيـل وعيـون الأقاويـل في وجـوه التأويـل، الزمخـشري: ٢/ ٣٣٤.
٤٣- التفسـير الوسـيط للقـرآن الكريـم، محمـد سـيد طنطـاوي: ٧/ ٤٠.
٤٤- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ٢٢٥.
٤٥- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد : ١١/ .
٤٦- المفـردات في غريـب القـرآن ، الراغـب الأصفهـانى :١٦٧.
٤٧- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد: ١٢٠/١١ .
٤٨- نظـم الـدرر في تناسـب الآيـات والسـور، برهان الديـن البقاعي:٨٩/٩ .
٤٩- أهم نظريات الحجاج : ٣٣٢.
٥٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ٢٢٧.
٥١- المصدر نفسه:١٧/ ٢٢٧.
٥٢- المصدر نفسه:١٧/ ٢٢٧.
٥٣- ينظر: أهم نظريات الحجاج : ٣٣٣.
٥٤- ينظر: أهم نظريات الحجاج : ٣٣٣.
٥٥- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ٢٢٧.
٥٦- ينظر: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات: ٤٩.
٥٧- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ٢٢٧.
٥٨- الحجاج والحقيقة أفاق التأويل: ٢٧٤ .
٥٩- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد : ١١ / ١٥٥ .
٦٠- أهـم النظريـات في الحجـاج، محمـد عـلي القـارصي:٣٩٢.
٦١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٧/ ٦٣.
٦٢- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد: ١٥٥/١١ .
٦٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٧/ ٦٣.
٦٤- أهم نظريات الحجاج:٣٣١ .
٦٥- إرشـاد العقـل السـليم إلى مزايـا الكتـاب الكريـم (تفسـير أبي السـعود)، ، أبـو السـعود :١٤١/٤.
٦٦- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد : ١٥٦/١١ .
٦٧- ينظـر: التفسـير الوسـيط للقـرآن الكريـم، محمـد سـيد طنطـاوي:٦٣/٧. :
٦٨- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:١٧/ ٢٤٧.
٦٩- تفسـير فتـح الغديـر الجامـع بـين فنـي الرواية والدرايـة مـن علم التفسـير ، للشـوكاني: ٢/ ٥٠٤.
٧٠- إرشـاد العقـل السـليم إلى مزايـا الكتـاب الكريـم:١٤٣/٤.
٧١- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديد من تفسـير الكتـاب المجيـد:١١/ ١٦١ .
٧٢- المصدر نفسه:١١/ ١٦١ .
٧٣- مختـار الصحـاح ، زيـن الديـن أبـو عبـد اللـه محمـد بـن أبي بكـر بـن عبـد القـادر الحنفـي الـرازي: ١٩.
٧٤- تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديد من تفسـير الكتـاب المجيـد:١١/ ١٦١ .
٧٥- إرشـاد العقـل السـليم إلى مزايـا الكتـاب الكريـم:١٤٢/٤.
٧٦- ينظر: المصدر نفسه:١٤٢/٤.
٧٧-المصدر نفسه:١٤٢/٤.
٧٨- ينظـر: تحريـر المعنـى السـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد:١١/ ١٦٢ .
٧٩- المصدر نفسه:١١/ ١٦٢ .

٨٠- ينظر: المصدر نفسه:١١/ ١٦٢ .
٨١- في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات : ٤٧.
٨٢- فتحُ البيان في مقاصد القرآن ،أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي: ٦٠/٦ .
٨٣- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي:٦ /١٢٤ وما بعدها.
٨٤- فتحُ البيان في مقاصد القرآن : ٦٠/٦ .

المصادر

- القرآن الكريم
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) ، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ) ، دار إحياء التراث العربي، لبنان- بيروت، ط١، (د. ت)
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، ط١ تونس، ١٩٨٤م
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي(ت ٦٠٦ه) دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ .
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة – القاهرة، ط١، ١٩٩٧ - ١٩٩٨ م.
- تفسير جوامع الجامع ، الشيخ الفاضل بن الحسن الطبرسي ، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران – قم، ط١٤٢٤،٣هـ .
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت – لبنان،ط٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .
- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل(بحث في الأشكال والاستراتيجيات) ، علي الشبعان، دار الكتاب الجديد ، المغرب،ط١، ٢٠١٠م .
- دلائل الإعجاز في علم المعاني ،أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) تحقيق :محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، مصر- القاهرة ، ط٣، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- شرح المختصر على تلخيص المفتاح للقزويني، سعد الدين التفتازاني: ، تحقيق ونشر، دار اسماعيليان، قم، ط٢، ١٤٢٧هـ
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- فتحُ البيان في مقاصد القرآن ،أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية

والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق- سوريا ، ط١، ١٤١٤ هـ .

■ في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكلياني، للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١م.

■ الكتاب، سيبويه (١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ،مكتبة الخانجي، مصر القاهرة، ط٣، ١٩٨٨ م.

■ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق: مصطفى حسين أحمد ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

■ لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ) الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر، لبنان – بيروت، ط٣ - ١٤١٤هـ.

■ مختار الصحاح ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

■ المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيات اللسانيات، رشيد الراضي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- مغرب، ط١، ٢٠١٤.

■ معجم مقاييس اللغة ،أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، عام النشر، لبنان – بيروت،ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

■ المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ) المحقق: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم، الدار الشامية ،- سروية- دمشق، لبنان بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ .

■ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م) ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند ، تحت مراقبة: د محمد عبد المعيد خان، ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.